توفيق كنعان

الطبيب والأديب والباحث والمؤرخ والأنثروبولوجي الفلسطيني

ساهم بتأسيس "الجمعية الطبية العربية لفلسطين" وانتخب رئيساً لها عام 1944

رئيس جمعية الشبان المسيحية (YMCA) في القدس لثلاث دورات

إلى جانب عمله الدؤوب في المجال الطبي، نشط كنعان في دراسة التراث الشعبي الفلسطيني، فقد وعى مبكّراً أهمية ذلك التراث في ترسيخ الهوّية الوطنيّة للفلسطينيين.

في الثلاثينيات حين تبيّنت له أخطار الهجرة اليهودية إلى فلسطين دعا إلى إيقافها فوراً وبشكل كامل، وضمان الحدّ الأدنى من الأرض للمزارعين العرب وعدم نزع ملكيتها. فكان بذلك سفيراً ثقافياً لبلاده ومعرّفاً للقارئ الغربي بالعادات والتقاليد الفلسطينية وبقضية العرب الفلسطينيين في وطنهم على حدّ سواء.

نجح في إثبات جوانب الاستمرارية الثقافية للفلسطينيين العرب من أقدم الأزمنة حتى الزمن الحاضر. وقد ظلت مؤلفاته حتى يومنا هذا أساسية لأي باحث في حقل علم الأعراق البشرية (الإثنوغرافيا) في منطقة الشرق الأدنى.

ولد توفيق بشارة كنعان، وهو الابن الثاني لوالديه بشارة وكاترينا، في بلدة "بيت جالا"، في 24 أيلول/ سبتمبر 1882.

وكان أبوه أول قسيس عربي في الكنيسة اللوثرية العربية.

زوجته السيدة مارغوت أيلندرMargot Eilender وهي من أصل ألماني. أولاده: يَسْمى وثيو وندى وليلى.

أكمل تعليمه الابتدائي في "بيت جالا" وانتقل إلى مدرسة "شنلّر" (Schneller) الألمانية في القدس حيث أنهى تعليمه الثانوي. وسافر سنة 1899 إلى بيروت لدراسة الطب في الكلية الإنجيلية السورية (الجامعة الأميركية في بيروت حالياً).

توفي والده بُعيد وصوله إلى بيروت فاضطر للعمل إلى جانب الدراسة، لكنه وعلى الرغم من ذلك تخرّج طبيباً سنة 1905 بمرتبة الشرف، وكُلّف بإلقاء خطبة التخرّج التي نشرت في مجلة "المقتطف" اللبنانية، ليعود بعدها مباشرة إلى فلسطين.

عمل كنعان بعد تخرّجه في مستشفيات عدّة في القدس، بدءاً من المستشفى الألماني ثم المستشفى الإنكليزي وفي مستشفى "شعاريه سيدِك"

اليهودي الألماني. وفي سنة 1910 أصبح الطبيب المسؤول عن عيادة تابعة لبلدية القدس. وكان في الفترة من 1906 إلى 1910 يجري اختبارات في علم الجراثيم والفحوص المجهرية، نَشر نتائجها في أول مقال طبي أساسي له سنة 1911 في مجلة "الكلية" الصادرة عن الكلية الإنجيلية السورية. وكان ذلك، فيما بعد، مجال تخصصه، إذ تابع في هامبورغ بألمانيا دراسة أمراض المناطق الحارة وعلم الجراثيم في الفترة ما بين سنة 1912 ومنتصف سنة 1914، وفي برلين لاحقاً سنة 1922، كان في أثنائها يعود إلى القدس لمتابعة أبحاثه ومزاولة عمله، إذ إنه كان قد عُيّن سنة 1913 مديراً لفرع مكافحة الملاريا في القدس في (Muehlen General Health Organization) وهو مركز عالمي للأبحاث الطبية والفحوص المجهرية لتحسين الأوضاع الصحية في فلسطين، كما افتتح عيادته الخاصة في بيته الذي بناه في حي المصرارة بالقدس، وكانت العيادة العربية الأولى والوحيدة فيها حينذاك.

ألحقته الدولة العثمانية طبيباً بجيشها في إثر دخولها الحرب العالمية الأولى في أواخر 1914، فعمل خلال فترة الحرب في أوضاع صعبة في أنحاء مختلفة من فلسطين وعلى جبهة سيناء وفي عمّان ودمشق وحلب، وأصيب بالكوليرا والتيفوئيد. كان مسؤولاً كذلك أثناء سنوات الحرب عن إدارة المختبرات الطبية العثمانية في فلسطين ودمشق وحلب.

بعد انتهاء الحرب تسلّم كنعان، في سنة، 1919 إدارة مستشفى الجُذام بالطالبية الذي أنشأته الجالية البروتستانتية الألمانية في القدس (سنة 1885، وواصل العمل فيه حتى نهاية عهد الانتداب، وشارك في الأبحاث والفحوص المجهرية التي أدّت إلى معالجة هذا المرض وتحقيق الشفاء منه في حالات كثيرة. وفي سنة 1924 تمّ تعيينه رئيساً لدائرة الأمراض الباطنية في المستشفى الألماني بالقدس وبقي فيه حتى سنة 1940.

إلى جانب عمله الدؤوب في المجال الطبي، نشط كنعان في دراسة التراث الشعبي الفلسطيني، وترأس في سنة 1927 "جمعية فلسطين الشرقية" (Palestine Oriental Society) ورئس تحرير مجلتها. وكان عضواً في "المدارس الأميركية للأبحاث الشرقية" (The American Schools of Oriental Research) ونشر العديد من مقالاته في مجلتها. وإضافة إلى ذلك، كان كنعان رئيساً لجمعية الشبان المسيحية (YMCA) في القدس لثلاث دورات، وانتُخب بعد تقاعده رئيساً فخرياً لها مدى الحياة.

وفي مقال نشره عام 1936 في صحيفة Daily Mail البريطانية عبّر كنعان عن خيبة أمل العرب (وخصوصاً المسيحيين الفلسطينيين المثقفين منهم) في بريطانيا، وقال: ومن دواعي العجب أنّ كلّ عربي، مسلماً كان أو مسيحياً، بدوياً أو فلاحاً أو مدنياً، متعلماً أو أمياً، أخذ يشعر بأن هذه السياسة (البريطانية) الظالمة تتهدد حياته ووجوده نفسه. ومن عجب أنّ كلّ واحد قد أصبح يمقت هذه السياسة غير الإنسانية ويعمل كلّ ما في وسعه لتغييرها.

كان توفيق كنعان معروفاً لدى سلطات الانتداب البريطاني بنضاله السياسي، إذ إنه طالما أعلن معارضته للسياسة البريطانية والصهيونية وفتح باب الهجرة أمام اليهود، وهو ما حدا بسلطة الانتداب إلى اعتقاله يوم 3 أيلول/ سبتمبر 1939، يوم إعلان بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا، وأودع في سجن عكا لتسعة أسابيع، غير أن ذلك لم يمنعه من مواصلة تصدّيه لتلك السياسات وللحركة الصهيونية في محاضراته ومؤلفاته

ساهم كنعان سنة 1944 بتأسيس "الجمعية الطبية العربية لفلسطين" وانتخب رئيساً لها، وكان عضواً لسبع سنوات في هيئة تحرير المجلة الصادرة عنها باللغتين العربية والإنكليزية. وكان لهذه الجمعية دور كبير في توفير الخدمات الطبية للمجاهدين.

في أوائل شهر أيار/ مايو 1948 أصيب منزل توفيق كنعان في القدس إصابة مباشرة بقذائف الهاون الصادرة من الأحياء اليهودية الغربية، فلجأت العائلة إلى دير الروم الأُرثوذكس في الجانب الشرقي من القدس حيث وفّر لها البطريرك غرفة في الدير أمضت فيها عامين ونصف العام. وكان كنعان يراقب عبر سور المدينة كيف تنهب الميليشيات الصهيونية محتويات منزله الثمينة ومكتبته العامرة وقد ضاعت معها ثلاث مخطوطات له كانت معدّة للنشر، قبل أن يحرق المنزل بكامله. وعلى الرغم من هذه الأحداث الأليمة، واصل كنعان معالجة المرضى واستمر بالعمل رئيساً لـ" الجمعية الطبية العربية لفلسطين". وعُيّن في سنة 1949 رئيساً للدائرة الصحية لـ"الاتحاد اللوثري العالمي" في الأردن، وبجهود منه أنشأ الاتحاد عدداً من العيادات في القدس وبيت جالا والخليل وفي قريتي الطيبة والعيزرية. وفي سنة 1950، وبجهد من كنعان وبالتعاون مع وكالة "الأونروا" و"الاتحاد اللوثري"، أُسس مستشفى أوغستا فيكتوريا (المطّلع) على جبل الطور وعُيّن مديراً طبّياً لها حتى تقاعده سنة 1955. وواصل فيما تبقى من سني حياته نشر ما يكتب من أبحاث.

وضع كنعان كتباً في الطبّ المحض (مثل "حبّة حلب، التهاب السحايا الدماغية والشوكية في القدس، عدوى الجذام") وفي علم اجتماع الطبّ أيضاً (مثل كتابه المدهش "الطب الشعبي في أرض الكتاب المقدس").

نشر كنعان ما يزيد عن ستين مقالة علمية في الدوريات الطبية الأوروبية باللغتين الألمانية والإنكليزية. ولم تقتصر مؤلفاته على العلوم الطبية، فقد كتب 45 مقالة تقريباً في التراث الشعبي (الفولكلور) المرتبط بالمعتقدات الغيبية والطب الشعبي بخاصة عند الفلاحين، ونشر ما يزيد عن 30 منها في السنوات ما بين 1920 و1938 في "مجلة جمعية فلسطين الشرقية" (The Journal of the Palestine Oriental Society). فقد وعى مبكّراً أهمية ذلك التراث في ترسيخ الهوّية الوطنيّة للفلسطينيين، فدعا إلى إجراء مسح شامل له قبل أن يضيع. وهذا ما دفعه منذ سنة 1905 إلى جمع الحجب المرتبطة بتلك المعتقدات الشعبية وتوثيقها والكتابة عنها، فتجمّعت لديه 1400 قطعة منها حتى سنة 1947، منحتها عائلته إلى جامعة بيرزيت بعد أن نجح في إنقاذها مما تعرّض له بيته لاحقاً. كما حاضر وكتب عن القضية العربية الفلسطينية خصوصاً في الثلاثينيات حين تبيّنت له أخطار الهجرة اليهودية إلى فلسطين ودعا إلى إيقافها فوراً وبشكل كامل، وضمان الحدّ الأدنى من الأرض للمزارعين العرب وعدم نزع ملكيتها. فكان بذلك سفيراً ثقافياً لبلاده ومعرّفاً للقارئ الغربي بالعادات والتقاليد الفلسطينية وبقضية العرب الفلسطينيين في وطنهم على حدّ سواء.

كان كنعان من روّاد الباحثين الفلسطينيين العرب في الشؤون التاريخية والفولكلورية والإثنوغرافية للفلسطينيين بصفتهم الوطنية وليس بوصفهم طوائف دينية مختلفة تسكن أرض فلسطين، فكان أوّل من ثبّت لفلسطين ككلّ هوّيتها الثقافيّة. ففي مقالته "النور والظلمة في الفولكلور بفلسطين" (1931) التي وضعها باللغة الإنكليزية، يقتبس من الكتاب المقدس كما من القرآن الكريم ويعود إلى الأدب العربي الكلاسيكي وإلى التعابير والمصطلحات العربية.

وبهذا نجح في إثبات جوانب الاستمرارية الثقافية للفلسطينيين العرب من أقدم الأزمنة حتى الزمن الحاضر. وقد ظلت مؤلفاته حتى يومنا هذا أساسية لأي باحث في حقل علم الأعراق البشرية (الإثنوغرافيا) في منطقة الشرق الأدنى.

نال توفيق كنعان تقديراً كبيراً في حياته، أكان في بلاده أم في خارجها. وقد مُنح ثمانية أوسمة يُعرف منها: "وسام الهلال الأحمر" و"الصليب الحديدي" (كلاهما أثناء الحرب العالمية الأولى)، و"صليب القبر المقدس" مع "شريط أحمر" قلّده إياه بطريرك الروم الأُرثوذكس سنة 1951، كما نال في العام نفسه وسام "صليب الاستحقاق الاتحادي" من جمهورية ألمانيا الاتحادية.

ظلّ توفيق كنعان مواصلاً نشاطه العلمي حتى أواخر أيام حياته على الرغم من اعتلال صحته، فقد نشر عدة مقالات في العام السابق لوفاته، بل إن مقالته الأخيرة "الجريمة في تقاليد وعادات عرب الأردن" نشرت بالألمانية بعيد وفاته.

توفيق كنعان طبيب لامع، وعلّامة موسوعي، ودارس رائد للتراث الشعبي في فلسطين، وأبرز مَن ألّف من الفلسطينيين العرب بلغات أجنبية في فترة ما قبل الانتداب وخلاله.

الوفاة

15 كانون الثاني 1964, القدس

أبرز مؤلفاته:

الكتب:

Aberglaube und Volksmedizin im Lande der Bibel. Hamburg: Abhhandlungen des Hamburgischen Kolonial Institut, Vol. 20, 1914.

Mohammedan Saints and Sanctuaries in Palestine, London: Luzac’s Oriental Religious Series V, 1927.

Dämonenglaube im Lande der Bibel. Leipzig: Hinrichs, 1929.

Unwritten Laws Affecting Arab Women in Palestine. Jerusalem: Printing and Stationary Office, 1931.

The Palestine Arab Cause. Jerusalem: The Modern Press, 1963.

Conflict in the Land of Peace. Jerusalem: Syrian Orphanage Press, 1963.

المقالات:

“Cerebrospinal-Meningitis in Jerusalem”, al-Kulliyah 2 (1911), 206-215.

“Demons as an Aetiological Factor in Popular Medicine”, al-Kulliyah 3/5 (March 1912), 150-154, and 3/6 (April), 183-190.

“Haunted Springs and Water Demons in Palestine”, The Journal of the Palestine Oriental Society 1 (1920/1921), 153-170.

“Folklore of the Seasons in Palestine”, The Journal of the PalestineOriental Society 3 (1923), 21-35.

.Tasit er-Radjfeh (Fear Cup)", The Journal of the Palestine Oriental Society 3 (1923), 122-131"

.Palestinian Demonography", The Parents' Review 37 (1926), 718-723"

.The Child in Palestinian Arab Superstition", The Journal of the PalestineOriental Society 7 (1927), 159-186"

.Plant-lore in Palestinian Superstition", The Journal of the Palestine Oriental Society 8 (1928), 129-168"

The Oriental Boil: An Epidemiological Study in Palestine", Transactionsof the Royal Society of Tropical Medicine and"

.Hygiene, 23 (1929), 89-94

.Studies in the Topography and Folklore of Petra", The Journal of the Palestine Oriental Society 9 (1929), 136-218"

.Water and 'The Water of Life' in Palestinian Superstition", The Journal of the Palestine Oriental Society 9 (1929), 57-69"

.Light and Darkness in Palestine Folklore", The Journal of the PalestineOriental Society 11 (1931), 15-36"

The Palestine Arab House: Its Architecture and Folklore", The Journal of the Palestine Oriental Society 12 (1932),"

.223-247, 13 (1933), 1-83

.Arab Magic Bowls", The Journal of the Palestine Oriental Society 16 (1936), 79-127"

.The Saqr Bedouin of Bisan”, The Journal of the Palestine Oriental Society16 (1936), 21-32“

.The Decipherment of Arabic Talismans”, Berytus Archaeological Studies4 (1937) 69-110; 5 (1938), 141-151“

.Topographical Studies in Leishmaniasis in Palestine”, Journal of thePalestinian Arab Medical Association 1, (1945), 4-12“

.Superstition and Folklore about Bread”, Bulletin of the American Schools of Oriental Research 157 (1963), 36-47“

المصادر:

تماري، سليم. "البرص و'المجاذيب' والأولياء الصالحون: إثنوغرافيا الأصول الجذورية لدى توفيق كنعان وحلقته المقدسية". "مجلة الدراسات الفلسطينية"، العدد 58 (ربيع 2004)، ص 119-136.

سرحان، نمر. "دراسات توفيق كنعان في الفولكلور الفلسطيني". "شؤون فلسطينية"، العدد 16 (1972)، ص 128-136.

الناشف، خالد، "توفيق كنعان: تقويم جديد"، "مجلة الدراسات الفلسطينية"، العدد 50 (ربيع 2002)، ص 69-91.

"الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، الدراسات الخاصة، الجزء الرابع، دراسات الحضارة". بيروت: هيئة الموسوعة الفلسطينية، ط 1، 1990.

Hübner, Ulrich and Brigit Mershen. “Tawfiq Canaan and His Contribution to the Ethnography of Palestine”, in Hübner, U. .(ed.). Palaestina Exploranda (ADPV 34), Wiesbaden 2006, pp. 251-264

Lapp, P., & Albright, W. (1964). Tawfiq Canaan in Memoriam. Bulletin of the American Schools of Oriental Research, (174), .pp. 1-3

.Nashef, Khaled. “Tawfik Canaan : his Life and Work”. Jerusalem Quarterly, issue 16, 2002